عنوان البحث:

هدايات الكعبة وأثرها في حضارة مكة

اسم الباحث/ـة

د/ محمد عطاء إبراهيم عبد الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ إقراراً به وتوحيداً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً مزيداً، (١) **أما بعد**

فهذا بحث متواضع، في استخراج بعض الهدايات القرآنية المتعلقة بالكعبة المشرفة، وبيان أثرها في حضارة مكة المكرمة، **لأهداف من أهمها:**

أولاً: المشاركة في المؤتمر القرآني بعنوان (**هدايات القرآن في بناء الإنسان**)، الذي ينظمه وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني بالشراكة مع شركة هداية للبحث والتطوير، وجمعية القلم للدراسات والأبحاث.

ثانياً: المساهمة في إثراء الهدايات القرآنية، وبيان فضل الكعبة المشرفة وأثرها في حضارة مكة المكرمة في ضوء هدايات القرآن الكريم، وتسليط الضوء القرآني على ما اختص الله به مكة وأهلها بفضل هذا البيت العتيق، مع الإشارة إلى فضل الولاة ودورهم في تحقيق تلك الخصائص لتكون مكة منارة رائدة في الأمن والاستقرار، والقيومية على الناس.

واتبعت في كتابة هذا البحث المنهج التالي:

١. **تقسيم البحث إلى ثلاثة مطالب:**

-**المطلب الأول:** الحضارة الدينية.

- **المطلب الثاني:** حضارة الأمن والاستقرار.

- **المطلب الثالث:** "مثابة للناس".

٢. **كتابة الآيات بالرسم العثماني** وعزوها بذكر اسم السورة ورقم الآية في المتن، أما الأحاديث وغيرها ففي الحاشية.

٣. **الاكتفاء بالهدايات الواضحة**، دون الهدايات الخفية، خشية إطالة البحث فوق اللازم.

٤. **يذكر الباحث الآيات الواردة في الموضوع** مع استخراج هداياتها ذات العلاقة، وصياغتها صياغة محررة، وربطها بواقع مكة مبينا أثرها في حضارتها.

٥. **الالتزام بما وضعته اللجنة المنظمة** للمؤتمر من إرشادات حول كتابة الأبحاث.

٦. **إثبات المصادر والمراجع في آخر البحث.**

(١) مقدمة العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

المطلب الأول: الحضارة الدينية

ما من مجتمع إلا وقد حظي نصيباً من الحضارة الدينية، فإن الناس فطروا على التعبد والتدين، بغض النظر عن صحة الدين الذي يدينون به ويتعبدون به، وإنما يقصد الباحث بهذا العنوان تميز مكة المكرمة بفضل الله تعالى ثم بفضل الكعبة المشرفة عن غيرها في هذا الجانب من الحضارات، وهذا مما يشير إليه بعض الهدايات المكنونة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

إذا نظرنا في هذه الآية نجد أنه تبارك وتعالى وصف الكعبة بأنها هدى للعالمين، وقبل أن تكون هدى للعالمين فإنها هدى لأهل مكة، فلا شك أن لها تأثيرا بالغا على الحضارة الدينية لمكة المكرمة كما ستبينه سطور هذا البحث بإذن الله.

وفي هذا الصدد يضطر الباحث إلى ذكر مقدمتين:

المقدمة الأولى: لإبراهيم الخليل ولدان؛ إسماعيل وإسحاق، عليهم السلام، وإسماعيل أبو العرب، وإسحاق أبو اليهود.

المقدمة الثانية: نعلم علم اليقين أن الله تعالى لم يرسل رسولا إلى العرب وإلى أهل مكة خصوصا، بعد إسماعيل عليه السلام إلا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بينما أرسل إلى ولد إسحاق رسلا وأنبياء لا يحصون، حتى روي أن اليهود عليهم من الله اللعائن المتتابعة قتلوا في اليوم الواحد ثلاث مئة نبي.

قال السيوطي رحمه الله: أخرج أبو داود الطيالسي، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: "كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار"(١)، فما سر هذا التفريق؟

والجواب في معنى كلام الرازي رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ ﴾ [السجدة: ٣].

يقول رحمه الله: "إن الله تعالى أجرى عادته على أن أهل عصر إذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم؛ يلطف بعباده ويرسل رسولا"(٢).

إذن نستطيع أن نفهم من خلال ذلك أن الله تعالى إنما أرسل إلى ولد إسحاق هؤلاء الأنبياء والرسل المتتابعة من لد يعقوب ثم يوسف إلى عهد موسى فما بعده... لحاجتهم الماسة إلى من يتعاهدهم بهدى الله تعالى، ويذكرهم بدينه وعهده.

---

(١) انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (١٧٨/١).

(٢) انظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٣٦/٢٥).

والسؤال الذي يطرح نفسه: ألا يحتاج العرب إلى مثل ما يحتاج إليه اليهود؟ لماذا تركهم الله تعالى مئات السنين بلا رسول ولا نبي؟ بينما كان يرسل إلى اليهود رسلا وأنبياء لا يحصون عددا؟ ونحن نعتقد

جزماً بأن ذلك لم يكن إهمالا للعرب، حاشاه الله سبحانه! أضف إلى ذلك أن موسى عليه السلام ترك لبني إسرائيل كتابا يرجعون إليه، وهو التوراة، أما إسماعيل عليه السلام فلم نقف على خبر صحيح بأنه قد ترك للعرب مثل هذا الكتاب!

والجواب والله أعلم!

أن العرب كان فيما بين ظهرانيهم الكعبة المشرفة، وقد وصفها الله تعالى بالهدى، فيتذكرون بها دين إبراهيم عليه السلام وتعاليمه، لذلك بقوا على دينه طيلة الفترة التي كانت فيها اليهود يزيغون عن الهدى فيتتابع فيهم الرسل والأنبياء، هم في تلك المدة الطويلة يعبدون الله ويوحدونه، ويلتزمون بشعائر دينه الحنيف، إلى أن جاء عمرو بن لحي الخزاعي فأدخل فيهم الوثنية ودعاهم إلى عبادة الأصنام، وهو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام.

ومما يؤكد ما ذكره الباحث أن بني إسرائيل لم يرسل إليهم رسول ولا نبي بعد عيسى عليه السلام، خلافاً لما اعتادوه من كثرة الأنبياء، وذلك لأن الله تعالى سيرسل خاتم النبيين إلى الناس كافة، بعدما انحرفوا بالكلية، وضلوا عن صراط الله المستقيم، بعد رفع عيسى عليه السلام عن بني إسرائيل، وبعد أن غير عمرو الخزاعي – لعنه الله – دين ولد إسماعيل عليه السلام.

هذا ما يقصده الباحث من تميز مكة في حضارتها الدينية، وهذا كله كما سلف بفضل الله تعالى ثم بفضل الكعبة، إذ يهتدون بها إلى معرفة الحق والثبات عليه، يقول الإمام السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾: "**والهدى نوعان**: هدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به، وأما هدى العلم فبما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق"(١).

ولم يقتصر الأمر على ذلك الزمن، بل نشاهده إلى يومنا الحاضر، والواقع خير شاهد، ورحم الله الحسن البصري حين قال: "لا يزال الناس على دين ما حجوا واستقبلوا القبلة"(٢)، فبفضل الكعبة تقدمت مكة في حضارتها الدينية، وببركة الكعبة صارت مكة منارة شرعية للعالم أجمع، يقصدها القريب والبعيد، للنهل من مائه العذب وهداه الصافي، وإذا قلنا بأن مكة وما حولها أفضل قرى العالم من حيث الالتزام بالدين وإظهار الشعائر لم نخطئ الصواب، بل ذلك هو عين الصواب، ولا ينكره إلا

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ص: ١٣٨).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١٢١٤/٤).

مكابر، وكل ذلك بفضل الله تعالى ثم بفضل الكعبة، وبفضل ولاة أمورها الذين لا يزالون يبذلون كل نفيس لأجل تحقيق مقاصد الكعبة، وتعظيم مكة.

وكل ذلك مما يدل عليه ويقرره قوله عز وجل أيضا: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: " قِيَامًا لِدِينِهِمْ وَمَعَالِمَ لِحَجِّهِمْ،"(١)، وقال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: "أي شِدَّةٌ لِدِينِهِمْ "(٢)، ولذلك بقي أهل مكة على المحجة البيضاء، وثبتوا على الهدى القرآني والمنهج النبوي، حين انحرف أغلب أهل الأرض عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وكتاب الله ينطق بينهم بالحق، وإلى ذلك يشير كلام السعدي رحمه الله في هذه الآية، قال: "يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم ودنياهم، فبذلك يتم إسلامهم"(٣).

يمكننا إذاً استخلاص هدايات الكعبة من الآيتين المذكورتين وإجمالها في النقاط التالية:

١- بقاء أهل مكة وثباتهم على دين الله الذي جاء به الرسل، بهدى الكعبة المتمثل في الآيات التي أودعها الله فيها، لقوله تعالى: ﴿ وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾، قال السعدي رحمه الله بتصرف: "وحصول الهدى من البيت بسبب الآيات البينات التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٩٧]، أي: أدلة واضحات، وبراهين قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية"(٤).

٢- تقدم مكة في حضارتها الدينية وتميزها عن غيرها بفضل الله ثم بفضل الكعبة، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾، وسريان هذه الحضارة إلى جميع العالمين، ممن يدينون دين الحق، لذلك سميت ﴿ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ [الأنعام: ٩٢]، لأن غيرها من المجتمعات تابعة لها، وقال ابن قتيبة: "لأنها أقدم القرى"(٥).

٣- فيها وجوب القيام بتعظيم الكعبة وخدمتها وتسهيل وصول العباد إليها، فهي قوام الناس جميعا، وبه تزدهر الحضارة الدينية، قال تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، قال السعدي: "ومن أجل كون البيت قياما للناس قال من قال من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة، فلو ترك الناس حجه لأثم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم، وقامت القيامة"(٦). وأهل مكة وولاتها أولى الناس بالقيام بهذا الواجب، فقد اختارهم الله من بين خلقه واصطفاهم لها.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١٢١٤/٤).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ص: ٢٤٤).

(٤) المصدر السابق (ص: ١٣٨).

(٥) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ١٣٦).

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ص: ٢٤٤).

لن تزال هذه الأمة بخير ما تعلقت ببيت الله الحرام، ولن تندرس الحضارة الدينية في مكة المكرمة وما حولها ما قاموا بحق الكعبة من الحرمة والعظمة، لقوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: "أي قِيَامًا لِدِينِهِمْ وَمَعْلَمًا لِحَجِّهِمْ " (١)، وقال الحسن البصري رحمه الله: "لا يزال الناس على دين ما حجوا واستقبلوا القبلة"(٢).

٤- فيها وجوب تعظيم الكعبة وما حولها كما عظمها الله تعالى، حيث جعلها ﴿ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، ومن تعظيمها أن الله يحاسب على الهم بالسيئات فيها، على خلاف غيرها من البقاع التي لايؤاخذ المرء فيها إلا على فعله أو قوله دون ما يهم به، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥].

٥- فيها أن من دواعي الثبات على الهدى بسبب الكعبة أن الله تعالى شدد في الأمر بالتزام الدين حولها، وتهدد الله تعالى وتوعد على العصيان فيها أكثر من غيرها، كما في قوله: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، قال ابن كثير رحمه الله: "أي: يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار، عامدا قاصدا أنه ظلم ليس بمتأول"(٣).

٦- فيها فضل القائمين على خدمة الكعبة حكاما ومحكومين، كيف لا وهي قبلة المسلمين، وعنوان حضارة الدين، في أم القرى وما حولها، وهي مجمع الفضائل ومحط المكارم، ففيها ترفع الدرجات وتغفر السيئات، وفيها يتسابق المتسابقون في الخيرات.

كل ما سبق ذكره؛ بالإضافة إلى ما تفردت به مكة من حضارة دينية منذ قديم الزمان، ولم يشهدها غيرها من القرى في تاريخ البشر، وهو وفود الناس من جميع بقاع الأرض لأداء مناسك الحج سنويا، والعمرة بين الفينة وأخرى، يقطعون المسافات الشاسعة، من أقصى الأرض إلى مكة، وينفقون كل نفيس وغال، تدينا وتعبدا لله عز وجل، وبكل حب وشوق.

والسبب في ذلك كله؛ في قوله تعالى: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، فلولا الله، ثم الكعبة؛ ما اختصت بذلك مكة، وفي هذا تحقيق لدعاء الخليل عليه السلام: ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، قال ابن كثير رحمه الله: "فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار"(٤).

ويرجع الفضل في ذلك إلى الخليل إبراهيم عليه السلام الذي بوأه الله تعالى مكان البيت، وأمره بتجهيز البيت وتطهيره للطائفين والقائمين، وكلُّ من قام بهذا الواجب، فطهر البيت من أدناس الشرك،

(١)نظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١٢١٤/٤).

(٢) نفس المصدر

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤١١/٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤١٤/٥).

ويسر أداء المناسك فيها للحجاج والمعتمرين؛ فله الأجر والثواب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، فهو أمر إلهي، ووظيفة أبي الأنبياء، خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فهنيئاً لولاة أمر هذا البلد، خدَمة بيت الله، وجميع القائمين على حقوق الكعبة.

المطلب الثاني: حضارة الأمن والاستقرار

حينما يتحدثون عن الحضارة الاجتماعية، يتفقون على أن الأمن والسلام؛ هو المعيار الأهم، إن لم نقل إنه المعيار الوحيد للحضارة والتقدم، يقول عادل عبد الصمد: "يعد الأمن حاجة أساسية للمجتمع الإنساني، ومؤشرا على الاستقرار والازدهار والتقدم في الوطن"[١] وقرر نزار بدران في مقال بعنوان: (معايير الحضارة) بأن السلام هو المعيار الوحيد للحضارة الاجتماعية، يقول في آخر المقال: "من هنا فإن هدف السياسة العظيمة، السياسة الحقة، هو الاعتراف بكل الجنسيات، وإعادة إحياء الوحدة التاريخية بين الأمم، وجمعها كلها في حضارة واحدة، هي حضارة السلام"[٢].

وقد سبقت مكة كل الدول وجميع القرى منذ آلاف السنين، إلى تحقيق الأمن والسلام، بل وقد تفردت مكة بأمن لن يشهده غيرها من القرى إلى قيام الساعة، وذلك بتقدير الخالق الكوني والشرعي، ثم بفضل الكعبة التي جعلها الله تعالى سببا لحصول هذا الأمن الفريد من نوعه.

أما تقديره الكوني ففي مدة الجاهلية، وأما تقديره الشرعي ففيما غير ذلك، وفي هذا جمع بين النصوص وبين ما حصل عبر التاريخ، إذ أخبر الله تعالى في آيات عديدة عن أمن مكة، ثم قد شاهد التاريخ ما وقع فيها من القتل، كما حصل لابن الزبير رضي الله عنه، وفتنة القرامطة.

يقول العلامة ابن عاشور رحمه الله: "الجُعل في الآية إما التكويني؛ لأن ذلك قدَّره الله، وأوجد أسبابه، فاستقر ذلك بين أهل الجاهلية، وإما بأمر الله بذلك.." إلى أن قال بعد ذكر كلام كبير القرامطة: "وهو جاهل غبي؛ لأن الله أراد الأمر بأن يجعل المسجد الحرام مأمناً في مدة الجاهلية، إذ لم يكن للناس وازع عن الظلم"[٣].

وقال الإمام الطبري رحمه الله: "وإنما سماه الله (أمنا) لأنه كان في الجاهلية معاذا لمن استعاذ به، وكان

---

(١) دور المؤسسات في تحقيق الأمن الاجتماعي لعادل عبد الصمد.

رابط المقال: https://www.alaraby.co.uk/ معايير-الحضارة-وحلم-فيكتور-هوغو.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/٧١٠).

الرجل منهم لو لقي به قاتل أبيه أو أخيه، لم يهجه ولم يعرض له حتى يخرج منه"[١]، وقصة هلاك أبرهة وجيشه كذلك أكبر شاهد على ذلك.

أما تقديره الشرعي فبيّن، فقد أمر الله تعالى بتأمين من دخله، كما في قوله: ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران: ٩٧]،

قال العلامة ابن باز رحمه الله: "يعني وجب أن يؤمن، وليس المعنى أنه لا يقع فيه أذى لأحد، ولا قتل، بل ذلك قد يقع، وإنما المقصود أن الواجب تأمين من دخله، وعدم التعرض له بسوء"[٢]، وفي الحديث الصحيح عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا» [٣].

ويؤيد ما ذكره الباحث كلامُ قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾.

قال: "وهذا كان في الجاهلية، كان الرّجل لو جرّ كل جريرة على نفسه، ثم لجأ إلى حَرَم الله، لم يُتناول ولم يُطلب، فأما في الإسلام فإنه لا يمنع من حدود الله، مَنْ سَرَق فيه قطع، ومن زَنى فيه أقيمَ عليه الحدّ، ومن قَتل فيه قُتل"، وعن الحسن نحوه.[٤]

وقال السعدي رحمه الله: "﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ شرعا وقدرا، فالشرع قد أمر الله رسوله إبراهيم ثم رسوله محمد باحترامه وتأمين من دخله، وأما تأمينها قدرا فلأن الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس حتى نفوس المشركين به الكافرين بربهم احترامه"[٥].

ولم يقتصر الأمن في مكة على بني البشر، بل شمل المخلوقات جميعا، كما في الحديث السابق؛ " لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا ".

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢٩/٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٨٠/٣).

(٣) متفق عليه؛ أخرجه الإمام البخاري، كتاب: الجزية، باب: إثم الغادر للبر والفاجر (٩٣/٢) رقم: ١٣٥٣، والإمام مسلم، كتاب: الحج، باب: تحريم مكة.. (٩٨٧/٢) رقم: ١٣٥٣.

(٤) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢٩/٦).

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ص: ١٣٨).

وكل ذلك بفضل الله ثم بسبب الكعبة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، قال العلامة السعدي رحمه الله: "أي يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار"(١).

فيا له من بيت شريف، ويا له من أثر عظيم، وأصل حرمة مكة وما حولها من حرمة البيت الذي هو الكعبة، وأصل هذه الحرمة والعظمة أنه تعالى أضاف البيت إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا؛ فقال تعالى لإبراهيم وإسماعيل: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]".

ولا شك أن لولاة أمر مكة وأهلها فضل عظيم لتحقيق هذا الأمن، فإنهم القائمون على ضمان تحقيق الأوامر الشرعية من تعظيم حرمة الكعبة، اصطفاهم الله تعالى للقيام بهذا الواجب الشريف، أسأل الله أن يثبتهم بتوفيقه، وأن يؤيدهم بتأييده.

إن هذا لفضل عظيم من الله جل جلاله، لا لأهل مكة فحسب، بل لجميع المسلمين القادمين من كل فج عميق، وكل المخلوقات اللاجئات في جناب حرم البيت العتيق.

ولولاة أمر هذا البلد أيضا فضل عظيم في تحقيق الأمن المشار إليه في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، فلقد تزعزع الأمن في البلاد المجاورة، وانتشرت فيها الخوف والفوضى، ولا تزال أم القرى شامخة بأمنها واستقرارها، عزيزة بمبادئها وأحكامها، بفضل الله تعالى ثم بفضل الكعبة وولاتها.

لا يعرف نعمة الأمن في أم القرى وما حولها داخل حدود حكم ولاتها إلا رجلان لا ثالث لهما: رجل من أهلها لم يشاهد بعينه ما يجري من الخوف والقلق في الدول الأخرى، ورجل أجنبي لم يشاهد الأمن فيها، ولقد عشت في المدينة النبوية عقدا وزيادة، فعرفت المعنى الحق للأمن والسلام، تسير في أنحاء الدولة بالليل دون خوف أو وجل، سواء على نفسك أو على عرضك أو على ممتلكاتك.

ضللت الطريق يوماً من جدة إلى المدينة واتجهت إلى ينبع خطأ، وكان معي أهلي وأولادي الصغار، فانقطع عنا البنزين بين ينبع والمدينة حيث لا محطات في وقت متأخر من الليل، فجاءنا رجل بدوي، فكانت زوجتي ترتجف خوفا، وكنت أهدئ من روعها لثقتي الكبيرة في أمن هذا البلد، فقال ما شأنكم؟ فأخبرته، فقال تعال معي للقرية نجيب لك بنزين وخلّ أهلك هنا، قلت كم يبعد؟ قال كيلو

(١) المصدر السابق (ص: ٦٥).

أو كيلوين، فقلت لا، قال: ما لنا حيلة، فذهبت معه متوكلا على الله، فحلت المشكلة ولله الحمد، وقال: لا تقلق، فإنك في بلد مسلم!.

ويمكن إجمال هدايات الكعبة في أمن مكة في النقاط التالية:

من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

١- جعل الله تعالى البيت وهو الكعبة سبباً لحصول الأمن في أم القرى، ونشر السلام فيما حولها، قال السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَمْنًا﴾: "يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار"(١).

٢- فيها تحريم التعرض لأهل مكة ولا من دخلها بشر، بإخافة أو قتل ونحوه، لقوله تعالى: ﴿وَأَمْنًا﴾، قال مجاهد: "لا يخاف فيه من دخله"(٢).

٣- فيها وجوب تعظيم حرمة الكعبة لتحقيق الأمن في مكة وما حولها، فإن أهل الجاهلية شديدو التعظيم لها، وأهل الإسلام من باب أولى، قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَأَمْنًا﴾: "من أم إليه فهو آمن، كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له"(٣)، وقال السعدي: "كانوا في الجاهلية على شركهم يحترمونه أشد الاحترام"(٤).

٤- فيها تحريم حمل السلاح داخل الحرم، ضمانا لدوام الأمن واستقراره، لقوله تعالى: ﴿وَأَمْنًا﴾، قال أبو العالية: "أمنا من العدو وأن يحمل فيه السلاح"(٥).

٥- أمن مكة بالكعبة قدر كوني وشرعي، كما تم بيان وجهه سابقا، وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "ومضمون ما فسر به الأئمة هذه الآية؛ أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفا به شرعا وقدرا"(٦).

٦- أمن مكة لا يقتصر على الأمن الاجتماعي، بل يشمل جميع مجالات الأمن، حتى الأمن الاقتصادي، كما في قوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]، تحقيقا لدعاء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ص: ٦٥).

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢٩/٢).

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ص: ٦٥).

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٢٢٥/١).

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤١٣/١).

ومن قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

١- من تمام أمن مكة بسبب الكعبة المشرفة أن من دخلها من أصحاب الحدود لم يقم عليه الحد داخل مكة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾، قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى بعد ذكر أقوال المفسرين في الآية: "وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: ومن دخله من غيره ممن لجأ إليه عائذًا به، كان آمنًا ما كان فيه، ولكنه يخرج منه فيقام عليه الحد"(١).

٢- مكة مأمن من المخاوف، فهي دار أمن وقرار، وذلك بفضل الكعبة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾، قال ابن كثير رحمه الله: "يعني: حرم مكة؛ إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في الجاهلية"(٢).

المطلب الثالث: حضارة "مثابة للناس"

إن مما تتنافس إليه الدول المتقدمة اليوم كثرة الزائرين والسياحيين، ففي العام ٢٠٢٢م مثلاً؛ حازت فرنسا على الرقم الواحد، بينما حازت إسبانيا على الرقم الثاني، ثم الولايات المتحدة، وتركيا، وفقا لما جاء في موقع En-Vols، كما أفادوا أن ٩٦٣ مليون من الناس في العام المذكور قد سافروا عبر الدول، لتغيير الجو فحسب(٣)، ومن المعلوم أن السياحي قد لا يجلس في الفندق إلا ليلة أو ليلتين، وربما لن يعود إلى نفس البلد في رحلته القادمة، إلا لسبب ضروري.

أما مكة المكرمة : فيأتيها ملايين من الناس طوال السنة، لا لمجرد السياحة، بل تعبدا لله جل جلاله، ومحبة لمكة، وتعظيما للكعبة، وإن الزائر يجلس فيها أياما وليالي، وربما شهر أو شهرين، ويرجع بين فينة وأخرى، لا يقضي منها وطره، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لا يقضون منه وطرا، يأتونه، ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه"(٤)، وقال الدكتور خالد السبت: "أي مرجعًا يأتونه ويثوبون إليه، يرجعون إلى أهليهم، ثم

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٣٤/٦).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧٩/٢).

(٣) انظر: موقع En-Vols برابط:

https://www.en-vols.com/en/getaways/travel/most-visited-countries-world/

(٤) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢٧/٢).

ما يلبث الواحد منهم أن يتجدد شوقه إلى هذا البيت العتيق فتتوق نفسه لمعاودة زيارته، وهذا من خصائصه فذلك لا يوجد لموضع في الأرض سوى بيت الله الحرام، كلما قضى الناس وطرهم وعادوا إلى أهليهم عادت وتجددت أشواقهم لمعاودة زيارته"(١).

وكل ذلك لأجل الطواف بالكعبة، كما قال سبحانه: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، فلولا الله، ثم الكعبة؛ ما اختصت بذلك مكة، وفي هذا تحقيق لدعاء الخليل عليه السلام: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]،

قال ابن كثير رحمه الله: "فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار"(٢).

فهؤلاء جمعوا بين المتعة والتعبد لله، حيث أحدثت الطاعة في قلوبهم المتعة في قضاء المناسك، تعلقت قلوبهم بالكعبة محبة وشوقاً، تعظيماً لها واحتراماً، طاعة لله تعالى وتبجيلاً، فهو الذي أمرهم بالحج والعمرة تعاهدا لبيته العتيق، كما قال لخليله إبراهيم عليه السلام بعد إتمام بناء الكعبة: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]،

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم كذلك على تعاهد الكعبة بين حين وآخر، كما في الحديث الصحيح: الْعمرَة إِلَى الْعمرَة كَفَّارَة لما بَينهمَا وَالْحج المبرور لَيْسَ لَهُ جَزَاء إِلَّا الْجنَّة "(٣)،

ولولا المحبة لله ثم للكعبة ما تابعوا العمرة، ولما بذلوا كل غال ونفيس، ولما تحملوا المشاق، لأجل الحج والعمرة.

وقد تفردت مكة بفضل الله تعالى ثم بفضل الكعبة بهذه الحضارة دون غيرها من الدول والقرى منذ قديم الزمان، ولذلك حاول أبرهة نقلها إلى بلده لتحويل الناس إليه، لكن الله تعالى بحوله وقوته حال بينه وبين مبتغاه، وأرسل إليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، فأين الدول التي تزعم الحضارة والتقدم؟!

---

(١) ينظر موقعه الرسمي برابط:-https://khaledalsabt.com/interpretations/3443/92قوله-تعالى-واذ-جعلنا-البيت-مثابة-للناس-وامنا

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/٤١٤).

(٣) أخرجه الإمام البخاري، كتاب: الحج، باب: وجوب العمرة وفضلها (٢/٣) رقم: ١٧٧٣.

إذن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ يرشد إلى هدايات من أهمها:

١- سبق مكة المكرمة وتفردها بهذه الحضارة بفضل الكعبة، فلأجل الكعبة وتعظيمها والطواف حولها صارت مكة ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾، مجمعا يترددون إليه.(١)

٢- شدة محبة المؤمنين للكعبة، مما جعل مكة مجمعا لهم يثوبون إليه، لقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾، قال عبدة بن أبي لبابة رحمه الله: "لا ينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قد قضى منه وطرا"(٢).

٣- بيت الله! تشتاق إليه الأرواح، وتحن إليه القلوب، ولا تقضي منه وطراً، ولو ترددت إليه كل عام، بل وكل شهر، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

٤- من لم يعظم الكعبة، ولم يتعلق قلبه بمكة؛ فليس بمؤمن، قال عطاء في قوله تعالى: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾: "يَثُوبُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا يَقْضُونَ مِنْهُ وَطَرًا "(٣)، ولذلك يقول سبحانه بعد الأمر بالحج: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

٥- فيها وجوب الاعتناء بالكعبة وتعظيمها، فهي قوام حضارة مكة، وقوام الناس دينا ودنيا، كما قال سبحانه: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]،

قال السعدي رحمه الله: "يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم ودنياهم، فبذلك يتم إسلامهم"(٤)، فجزا الله خادم الحرمين الشريفين، وجميع أعوانه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ص: ٦٥).

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢/٢٧).

(٣) المصدر السابق.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ص: ٢٤٤).

ثبت المصادر والمراجع

١-التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، ط. الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م.

٢-تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط. مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة ١٤١٩ هـ.

٣-تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ.

٤-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ.

٥-جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ.

٦-الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي.

٧-صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط. دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.

٨-صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩-العدة في فوائد العمدة لعبد الرحمن بن ناصر البراك، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، الطبعة الأولى ١٤٣٨ هـ.

١٠-غريب القرآن لابن قتيبة الدينوري، تحقيق: سعيد اللحام.

١١-متن العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

١٢-مجموع الفتاوى للشيخ ابن باز، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.

١٣-مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠ هـ.

١٤-موقع الأستاذ الدكتور خالد بن عثمان السبت.

قوله-تعالى-واذ-جعلنا-البيت--https://khaledalsabt.com/interpretations/3443/92
مثابة-للناس-وامنا

١٥-موقع العربي الجديد.

معايير-الحضارة-وحلم-فيكتور-هوغو/https://www.alaraby.co.uk

١٦-موقع: En-Vols.

https://www.en-vols.com/en/getaways/travel/most-visited-countries-world/

المحتويات

المقدمة..... **خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**

المطلب الأول: الحضارة الدينية.....٤

المطلب الثاني: حضارة الأمن والاستقرار ٨

المطلب الثالث: حضارة "مثابة للناس"..... ١٢